رأي الوسطية في أحداث 11 سبتمبر

لقد ابتدأت الأحداث بالتفجيرات المروعة التي وقعت في أمريكا وتحول العالم إلى هرج ومرج وكأنما فقد الناس عقولهم فلا منطق ولا عقل ولا تفكير، وإنما.. تهم، وتهديد، ووعيد.. فالجميع مذهولون إذ فوجئوا بما حدث وسلموا بكل ما قيل. والحديث عن هذه القضية طويل كثير التشعبات ولكن ما نستطيع قوله في البداية هو أن الكثير من علماء المسلمين إضافة إلى زعمائهم وحكامهم بادروا إلى استنكار الحدث... إما لعدم مشروعيته أصلاً في نظر بعضهم، وإما لما يترتب عليه من مفاسد ومضار للمسلمين في نظر آخرين، وإما لدفع قالة السوء ومنع تشويه صورة الإسلام عند غير المسلمين، وإن كان جمهور وعوام المسلمين في كل مكان قد ابتهجوا وتشفوا في رد فعل عفوي تجاه أمريكا ولما يتلقاه المسلمون منها في كل مكان وبالذات في فلسطين على يد ابنة أمريكا المدللة... إسرائيل.

ولعل لغتنا العربية تزهو بكل ما هو راقٍ ومفيد، وفيها من البلاغة ما يغني كل متمعن لها ودارس عن جميع اللغات التي ينعتونها بأنها لغات حية، بينما لغتنا الجميلة لغة القرآن هي لغة ميتة وغير علمية! وعندما يردد حكماء العرب مقولة معينة فإنك لا تجد ما يبعدك عن ترديدها ولا ما يمنعك من الاستدلال بها. وقد قال حكماء العرب: نعوذ بالله من الحديث المعاد. وهنا استعاذة كاملة من الحديث المعاد

لأنه شاهد على أشياء كثيرة ومؤشر إلى انعدام القدرة على الابتكار والإبداع والإنشاء. فنحن لا نشك في صدق من أدلى بدلوه وبراءة من كتب وتبحر في قضية تمس الإسلام والعالم الإسلامي، وهي الإرهاب والتشدد الذي انتشر عند بعض شبابنا. ولكن ليس مهماً أن نسمع آراء أو أن نقرأ وجهات نظر كل من كانت لديه المقدرة على الكتابة أو أن نتحدث إلى الناس سوى عن طريق وسائل الإعلام المرئي منها والمسموع والمقروء. الأهم من وجهة نظري هو أن نسمع قولاً فصلاً، وقد قال علماؤنا قولاً فصلاً في هذا الموضوع. فقد بينوا بما لا يلتبس على ذي عقل، أن ما يحدث من إرهاب لا يمت للدين أو العقل بسبب أو نسب، بل الدين من تلك الأعمال المشينة براء، براءة الذئب من دم يوسف.

ولكن ما أريد قوله أنّه لا حاجة لربط هذا الإرهاب الذي وجد له أوكاراً في بلادنا بأي سبب ديني أو اقتصادي أو اجتماعي أو تعلمي أو تربوي أو حتى سياسي، وألاّ نقوم بترديد ما يقوله الغرب. فالإرهاب مرض ظهر كما ظهرت بعض الأمراض التي فاجأت العالم ولم يجدوا لها أمصالاً تقضي على تلك الفيروسات التي أصابت بني البشر، تلك الأمراض التي تفشت خلال العقدين الآخرين، منها على سبيل المثال الإيدز، جنون البقر، أنفلونزا الطيور..... فالإرهاب لا ينفع معه المسكنات والمهدئات، بل هو جريمة تعاقب عليها كل الشرائع والقوانين. والقضاء عليه يستلزم القضاء على بيئته، تلك البيئة التي سهلت وجود مثل هذا المرض.

ومن المحــزن أن يربط بين الإرهـاب و الإســلام، ووصف الإرهابيين بأنهم إسلاميون متشددون، أو وصفهم بأنهم خوارج، وأنا لا أجد صفة التدين أو الإسـلام الحق عند أولئك الشبـاب الذين ينتحـرون ويقـتلون غـيـرهم بالدم البـارد، فـالإرهـابي المسلم يشبـه الإرهابي النصـراني أو اليهودي أو حتى من لا دين له. وأجـزم أن الـربط بين الإرهـاب والدين إسـاءة بـالغـة إلى الدين. فـالدين السـمـاوي أياً كـان لا يتبنى مـثل هذه الأفـعـال الشنيـعـة. فليس بعـد الكفـر ملة. فطالما أن من يقـوم بهـذه الأعـمال قد ثبت عند علمـاء المسلمين وجمهورهم أنه لا يمثل الإسـلام والمسلمين، إذن مـا الداعي أو الفائدة من تذكيـرهم بأن عملهم يقـودهم إلى النار لا إلى أحـضـان الحـسـان في روضـات الجنان؟ هل أعـرنا عقولنا لنصدقهم بأنهم ينتحرون ليدخلوا الجنة؟ وصدق الشاعر:

أســـــمـع في قـلبـي دبيـب المنـى

وألمح الشــبــهــة في خـــاطري

أليس الإسـلام قد أنزل العـقـوبات كـعقـوبة القتل العـمد، وعقـوبة الردة؟ وهل القـاضي يسـأل القـاتل العـمـد عن الأسـبـاب الاقـتصـادية أو التربوية أو السياسية لما حدث؟ فـمهمـا يكن السـبب فـلابد للقـاضي إذا تبين له الجـرم أن يحكم بالعقوبة دون الركون إلى تبـريرات وتفـسيرات. ولو فـعـل لاخـتـل توازن المجـتـمع وسـادت الفـوضى، وأنا في نظري المتواضع أرى أن الإرهـاب لا يقتل فرداً أو فـردين عمداً، بل يقتل جمعاً، ويروع أمة، ويهدم ويفسد.

ثمة أمر آخر.. نحن نسير دون أن نعي خلف الإعلام الغربي، وربما خلف المشرع الغربي عند بحثنا عن الإرهاب، أنا لا يهمني إذا لم يتفق المشرعون والحكماء والمتخصصون على تعريف محدد للإرهاب، ولا يهمني كثرة البحوث والتقارير والكلام المعاد، و لكن ما يهمني هو أن الإرهاب بكل المقاييس العقلية والشرعية جرم. فإن كان الأمر كما ذكرت، إذاً ما الفائدة في بسط القول وترديده؟ والله ما أضر بأهل أثينا وأضعفهم وهزمهم أمام عدوهم (أهل إسبرطة) إلا إضاعة الوقت في المناقشات السفسطائية.

ما يهمني أننا في المملكة، حكومة وشعباً ومؤسسات دينية ومدنية، وفوق هذا عقل زرعه الله في رؤوسنا، نعترف بأن ما نواجهه إرهاب بكل المقاييس، وأن علينا مواجهته بقوة وبأس شديدين، دون الالتفات إلى رأي هنا أو هناك ممن لا يرى ما نراه، ولكل أمة لباس، ولباسنا التقوى، والسلم، والأمن، ودثارنا الصدق والقوة والعزيمة. وقبل الدخول في استكشاف آفاق ما بعد 11 سبتمبر 2001، أجد من المفيد بيان رأي الوسطية في هذه العمليات، وألخّص فيما يأتي أهمّ المسائل المتعلّقة بهذا الموضوع:

أولا: الدعوة إلى الله تعالى هي مهمّة جميع الرسل: ولمّا كان محمد رسول الله ﷺ هو آخر الرسل، كانت رسالته موجّهة إلى جميع بني البشر منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة. وبعد وفاته انتقلت هذه المهمّة إلى جميع المسلمين، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (سورة آل عمران: 104)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة فصّلت: 33).

إنّ من أهمّ أخلاق الدعاة الرفق بالناس، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ومقابلة السيّئة بالحسنة، وبذل الجهد للمساعدة فيما يحتاجونه من أمور الدنيا، والتواصل معهم في كلّ معروف، وغير ذلك ممّا كثر فيه التوجيه القرآني والحديث النبوي الشريف، وظهرت فيه نماذج رائعة على يد الدعاة إلى الله في جميع العصور.

وعلى ذكر الدعاة فليس من الواجب أن نكون نحن الطلاب ـ أي الموفدين إلى الخارج ـ كلنا دعاة... فالدعوة لها شروطها وأسسها، ولكن ما يجب هو أن يعكس الطالب صورة المسلم الصحيحة في تعامله وفي منهجه وعلاقته، مع الابتعاد عن كل ما يسيء إلى المسلم من قول وفعل. وأذكر هنا موقفاً حصل لي شخصياً، فقد كنت في بيتي في مدينة كاربنديل عند الساعة الواحدة ظهراً، وإذا بطارق على الباب ففتح له أحد أبنائي، عندها جاء وذكر لي بأن رجلين يسألان عني (ولا أخفيكم فقد توقعت أنهما من المباحث الفيدرالية) عندها استعنت بالله وتوجهت إليهما فإذا بي أجد شابين طويلين يرتديان لباساً أنيقاً.. فقمت بتحيتهما فطلبا مني أن يتحدثا معي خمس دقائق، عندها ازداد خوفي، ولكن.. لم يكن مني سوى الاستجابة، وطلبت منهما أن يمهلاني ثواني عدة كي أعد المكان لاستقبالهما، عندها أخبرت الأهل بأن لدي ضيوفاً. جلسا.. حييتاني مرة ثانية

وسألاني عن هويتي ومن أين أنا، ثم بدأا يتحدثان عن الدين... ما لبثت أن استوعبت وعرفت أنهما مبشران يدعوان إلى التنصر. في الواقع استغللت الموقف بعد أن أعطوني فرصة للتحدث وقلبت الطاولة وقمت أتحدث عن الدين الإسلامي وسماحته ثم طلبت من الأهل أن يعدوا لي مجموعه من النشرات والكتيبات بالإضافة إلى قرص ممغنط يحتوي على معلومات عن الدين الإسلامي، عندها دعوت أبنائي (عبد الله وسلطان) وطلبت منهما أن يعرفا باسميهما مع تقديم تلك الكتيبات التي تعرف بالإسلام والمسلمين بصورة طيبة (كانت تلك الكتيبات قد حصلنا عليها من السفارة السعودية جزاهم الله عنا كل خير)، لقد أتيا لهدف معين ولكني انتهزت الفرصة.. وهاهما قد خرجا بصورة أعتقد أنها طيبة مع دعوة للقراءة ومعرفة هذا الدين الحنيف.

ولعل الشيء بالشيء يذكر.. ففي سنة 2003م قرأت قصة جميلة، تناولتها صفحات الإنترنت وتحدثت عنها الصحافة الكندية خلال ذلك العام وسأحاول سرد قصتها مترجمة... تقول تلك المرأة عن نفسها وعن رحلتها إلى النور: «الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام والإيمان وبيّن لنا الطريق الصحيح لعبادته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أختكم أمَة الله، كندية مسلمة، أعمل بفن الزجاج الملون (تلوين الزجاج).... الاسم: أمة الله ـ حالياً ـ. الجنسية والإقامة: كندا.. السن: 43 سنة. بدأت رحلتي مع الإسلام منذ سنتين أو أكثر قليلاً وبالتحديد في إحدى ليالي فبراير عام 2003 م، عندما كنت بمفردي بمنزلي، جال بذهني حديث النفس عن الجنة والنار ومثوى الإنسان ورحلته في الدنيا، ومأواه في نهاية الأمر، وقد فكرت أنه من

المحتمل أن يعيش الإنسان قليلاً، لذا فعليه أن يقدم لآخرته، فإن على الإنسان أن يعطي ما يملك من طاقة الخير للآخرين، كما أن عليه أن يعبد الله الإله الخالق، ثم بدأت أبكي وأصلي صلواتي المسيحية ودعوت الله أن يوفقني لأن (أخدمه)، فيما يتبقى من عمري، فعزمت من تلك اللحظة أن أكون مسيحية صالحة، وفكّرت في دراسة الإنجيل، وجعل صلتي أكثر بالكنيسة، ثم وبعد بكاء طويل وإحساس بالقرب من الله ذهبت لفراشي.

وبعد هذه الحادثة بيومين دق جرس الباب، ولم أكن قد سمعت عن الإسلام بعد، ولكنني كنت أسمع عن المسلمين وخصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر، كما لم أقابل مسلماً أو مسلمة من قبل... رأيت أمامي امرأة مسلمة ترتدي الحجاب، واعتقدت أن هذه الملابس من عادات وتقاليد مجتمعها وثقافته، وقد طلبتْ زجاجاً ملوّناً بتصميمات إسلامية، وبعد أن تركتني كنت بحاجة لمعرفة التصميمات الإسلامية لكي أتمكن من تصميم ما طلبت ولذلك بحثت عنها في الإنترنت.

وعندما كتبت كلمة الإسلام في مؤشر البحث، ظهرت لي مواقع عدة، فبدأت أقرأ عن الإسلام، ونسيت التصميمات!! وبدأت أبحث أكثر وأتعلّم أكثر، ولاسيما أن كل المواقع والقنوات التلفزيونية تتحدث عن الإسلام خلال تلك المدة ـ بكثير من السلب وقليل من الإيجاب. وبدأت أحس أنه الدين الصحيح، وآمنت بأن هناك إلهاً واحداً (الله)، ولكنني لم أكن أسمع من قبل عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. شعرت بمتعة جارفة وسعادة غامرة، ورغبة في قراءة المزيد..

وهكذا، لم أستطع التوقف. وعلى الفور اشتريت العديد من الكتب ونسخة من القرآن الكريم وترجمات له، فقربني ما قرأت من الإسلام ولله الحمد. وما إن مر شهر مايو من العام نفسه إلا وكنت قد اتصلت بأحد المساجد في كندا، ومع بعض الخوف ذهبت وأشهرت إسلامي ونطقت بشهادة الحق. وقابلتني هناك إحدى السيدات المسلمات لها نشاط في الدعوة، وأعطتني تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم وكتاباً لشرح العقيدة الإسلامية، فخرجت من المسجد وكأنني خلقت من جديد.. مسلمة بلا أي خطايا أو ذنوب، إذاً هي فرصة لكي أعيش على طاعة الله وأن أعبده حق عبادته.. فيا لروعة الوصول إلى الحق ويا لعظمة هذا الدين! فمنذ الوهلة الأولى لدخولي في الإسلام، شعرت بأنني قد تحملت تبعات جديدة ومسؤوليات عظيمة نحو نفسي أولاً، ونحو غيري ثانياً، لإنقاذهم من غياهب الظلمات، وهذه رسالة مني لفتيات الإسلام: أين أنتن من التطبيق الصحيح للإسلام والدعوة المتفانية إلى الله تعالى؟

بدأت أتعرّف على فرائض الإسلام، فبدأت أتعلم الوضوء والطهارة والصلاة والحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، وواظبت على الصلاة منذ دخولي الإسلام ولله الحمد والمنة. كنت أعيش بمدينة صغيرة ولذلك عندما بدأت الخروج وأنا أرتدي الحجاب كنت أجذب انتباه الآخرين، وأتذكّر أنني كنت أرتديه وبعض شعر رأسي ظاهراً وكنت أضع بعضاً من أحمر الشفاه.

في البداية انتابني الخوف من كلام الناس في مدينتي، وعندما عدت إلى المنزل، فتحت كتاب (التعاليم والعقيدة الإسلامية)، وقرأت فيه أن الإنسان عليه ألا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى، وعندما قرأت ذلك غمرتني السعادة لأنني عرفت أنه يجب علي أن أخاف الله وحده رب العالمين ولا أخاف لومة أحد من الناس، ومن هذه اللحظة ارتديت الحجاب كاملاً بالنقاب. ورغم أن الحياة في مدينة صغيرة ليس بها الكثير من المسلمين، إلا أن ارتداء النقاب يعتبر أمراً صعباً جداً، ويحتاج إلى كفاح، ولكني ولله الحمد استطعت القيام بذلك، لأنني أصبحت لا أهتم ببعض التعليقات السخيفة التي تسخر مني. فالحمد لله الذي اختارني وأعانني على أن أكون أمَة له، وأن أمثّل دينه الحنيف... الإسلام.

ومع شعوري بأنني أصبحت أمثّل الإسلام في قريتي، ازدادت المسؤوليات، فأمضيت وقتاً كثيراً في الدراسة. وفي آخر شهر يوليو التقيت مع مجموعة من الأخوات بناءً على دعوة تلقّيتها من الأخت التي كنت قد قابلتها في المسجد يوم نطقي بالشهادة، حيث أرسلت لي دعوة عبر البريد الإلكتروني لحضور مناسبة إسلامية، فحضرت والتقيت بأخت كانت في غاية الكرم، ووجّهت لي الدعوة لحضور بعض الاجتماعات الإسلامية بصحبتها. وبالفعل ذهبت واستمتعت كثيراً بتلك الاجتماعات، ولكنني وجدت أن هذه ليست هي الطريقة المثلى لتعلم الدين الإسلامي.

بدأت أسأل عن طلب العلم حتى وجدت عالماً من كبار المعلمين يدرِّس الشريعة، فانتظمت في الدراسة والحضور أكثر من عام حتى الآن (فدراسة الشريعة هي الأكثر أهمية بالنسبة لي). فتعلّمت عقيدتي عن طريق الأدلة النصّية الصحيحة، ولولا ذلك لوقعت في البدع، مثلي مثل كثير من المسلمين الذين التقيت بهم على الرغم من سلامة طويّتهم ووجود نية المساعدة لديهم، إلا أن هناك من كانوا يعلمونني الإسلام طبقاً لثقافتهم هُم، على ما فيها من بدع وأخطاء منتشرة بين أبناء المسلمين. لذا أنصح المسلمين في بقاع الأرض بتصحيح عقيدتهم أولاً لنشر دينهم بطريقة صحيحة، فمن فقد منهم هذا الجانب، فبالأحرى سينشر الإسلام مشوّهاً، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. فدرست العربية، وحفظت بعض سور القرآن الكريم، وأتعلّم الآن التجويد ولله الحمد والمنة... وإن كان تعلم اللغة العربية أصعب شيء قابلني. وبناء على إيماني بالمسؤولية نحو نشر الإسلام وأن هذا فرض عليَّ، بدأت بالدعوة عن طريق خلقي وأفعالي حيث تطوّعت بملجأ للمشردين بتورنتو ـ كندا، التي تبعد 45 دقيقة بالسيارة عن بيتي، حيث إنني المسلمة الوحيدة المتطوّعة في هذا المشروع. والحقيقة أن جميع المتطوعين هناك رحبوا بي، وقد أتاح لي تميّزي وارتدائي النقاب الفرصة لتوضيح سبب ارتدائي له، وأيضاً توضيح وحدانية الله تعالى والتحدث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ.. ويعلم الله كم أصبحت سعيدة لنشر تعاليم الإسلام من خلال أفعالي الطيبة

تجاه المحتاجين، ما أثمر ولله الحمد ثمرات طيبة.. فأحد النزلاء بالملجأ ويبلغ من العمر 80 عاماً، اهتم بالإسلام وحضر معي إلى المسجد ثلاث مرات، وها قد دخل فرد آخر في الإسلام. وأصبح الكثير من النزلاء يعرفون الإسلام جيداً، بعد ما كانوا لا يعرفون عنه شيئاً. فبأشياء بسيطة جداً أستطيع أن أنشر الإسلام وسط المحتاجين من أمثال نزلاء الملجأ، من خلال العطف، وجُود النفس بالمستلزمات البسيطة كالبطّانيات أو الطعام أو القليل من المال، حتى دخل رجل ثانٍ في الإسلام بعد أن سأل عن تعاليمه، حيث أذكر دائماً تعاليم الإسلام للمحتاجين فور مساعدتي إياهم. ومن هنا بدأت تساعدني بعض الأخوات في هذا العمل الخيري بالإضافة إلى من أسلم من أبنائي. وفي الحقيقة أن الله تعالى منَّ علي وأكرمني بدعوة أهلي للإسلام، حيث إنني منفصلة عن زوجي، ونجحت في دعوة من معي من أبنائي في دخول الإسلام. وهاهو ابني البالغ من العمر 14 عاماً قد نطق بالشهادة ولله الحمد، وهاهي ابنتي الصغرى بحمد الله تصلّي معنا، وسوف ترتدي الحجاب إن شاء الله... وتبلغ سعادتي منتهاها عندما نصلي نحن الثلاثة معاً ونعبد الله سوياً. إلا أن ابنتي الكبرى لم تكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكنني أعتقد أنها سوف تعتنقه إن شاء الله في يوم من الأيام. فكم كانت تقول إنها مسيحية، أما الآن فهي تقول إنها ليست كما كانت من قبل، وإنها الآن تؤمن بوحدانية الله وبخاتم الأنبياء ﷺ. ولي ولد يعيش مع والده وهو يرفض اعتناق الإسلام، ولكنه إن شاء الله سوف يسلم.

ودائماً أدعو له و للآخرين بأن يهديهم الله. أما عن والدي فله قصة أخرى أريد أن أنهي بها حواري هذا.. فوالدي أيضاً اعتنق الإسلام في آخر شهر يوليو، وكان من أكثر من عرفت تديّناً وحياءً.. كان يعبد الإله طوال حياته، ولكنه كان مشوّش الفكر، وهو أيضاً لم يكن يعرف أي شيء عن الإسلام ولا عن خاتم الأنبياء ﷺ، وقد وفّقه الله وهداه للإسلام ونطق الشهادة. وبعد أيام عدة ذهبت معه إلى الطبيب لنكتشف أنه مصاب بسرطان الدم. وبحلول يوم الأحد أصبح والدي مريضاً جداً ونُقل إلى المستشفى وتوفّي بعد 13 يوماً. الحمد لله توفّي بشكل طيب ـ أحسبه إن شاء الله قد نال حسن الخاتمة ـ فقد كان لا يستطيع الكلام ولكنه كان يداوم على التسبيح والتلفّظ بالشهادة، وكنت دائماً بجانبه، وعشت معه في غرفته، وكنت مداومة على تشغيل الآلة بالقرآن الكريم وقراءة القرآن له، ولحظة لفظه أنفاسه الأخيرة كان في ذكر الله وتوفي عليه... فلله الحمد أن أنقذه على يديَّ من النار. وفي النهاية فكل منّا مسؤول عن نفسه وعن الآخرين، وعن دين الله عز وجل، وعلينا أن ننشر دين الله تعالى، كما أن علينا الهجرة إلى الله، ونحن عالمون بأننا لسنا ملائكة ولا دون ذنب وإنما نعترف لله بالذنب ونسأله سبحانه المغفرة. وإنني لعلى يقين بأنني اليوم لست كيوم دخلت الإسلام، حيث كنت يومها بلا ذنب كمن ولد من جديد، ولكنني أسأل الله المغفرة، وأن يوفّقني للعمل في خدمة الإسلام حتى ألقاه وهو راضٍ عني غير غضبان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

انتهى كلامها ـ رعاها الله. هذه رسالة من مسلمة جديدة تبثها لا من قلبها وإنما بقلبها وفعلها ولسانها قائلة لكل مسلم: هذا الدين أمانة في يدك، وهناك من ينتظر أن يصله هذا الدين، فبادر بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بادر بخدمة الإسلام، بادر بنشر دين الله الصحيح، بادر بالدعوة.. بفعلك وسلوكك، وبادر بتصحيح معتقدك حتى لا تصبح أفعالك دعوة سلبية وحجة عليك لا لك. وعلى كل متكاسل أن يقف مع نفسه وقفة وهو يقرأ قصة هذه المرأة العظيمة. أحبّتي في الله: هذه المرأة اعتمدت في دعوتها ليس على لسانها فقط ـ كما يفعل الكثير من الدعاة ـ ولكن اعتمدت على أعمالها الصالحة وسلوكها الإسلامي السليم، وهذا ما ينقصنا الآن.. وهذا ما يجب على كل منا الالتزام به. العمل ثم العمل.. تخيّل أنه بأعمالنا الصالحة وتقديمنا الأنموذج الإسلامي العملي يمكننا أن ننقذ من في هذا العالم؟ بل كم يمكننا أن ننقذ من شاب مسلم بالبطاقة فقط؟ شباب فاقد للقدوة.. فلنكن نحن القدوة ولنقدم للعالم خلق الإسلام ناطقاً في سلوكنا وأعمالنا.

وقد ذكر أحد الدعاة المعاصرين قصة جميلة لأحد الطلبة في الثلاثينيات من القرن العشرين، كان قد التحق بكلية الزراعة في إحدى جامعات مصر، وعندما حان وقت الصلاة بحث عن مكان ليصلي فيه فأخبروه أنه لا يوجد مكان للصلاة في الكلية ولكن هناك غرفة صغيرة (قبو) تحت الأرض يمكن أن يُصلي فيه، ذهب الطالب إلى الغرفة تحت الأرض وهو مستغرب من الطلبة الذين معه في الكلية

لعدم اهتمامهم بموضوع الصلاة، أيصلون أم لا!! المهم أنه دخل الغرفة فوجد فيها حصيراً قديماً، وكانت غرفة غير مرتبة ولا نظيفة، ووجد عاملاً يصلي، فسأله الطالب: هل تصلي هنا؟ فأجاب العامل: نعم، فمعظم الطلبة الذين فوقنا لا يصلون ولا يوجد غير هذه الغرفة.

فقال الطالب معترضاً: أما أنا فلا أصلي تحت الأرض. وخرج من القبو إلى الأعلى، وبحث عن أكثر مكان معروف وواضح في الكلية وعمل شيئاً غريباً جداً.. وقف وأذّن للصلاة بأعلى صوته!!

تفاجأ الجميع وأخذ الطلاب يضحكون ويشيرون إليه بأيديهم ويتهمونه بالجنون. لم يبالِ بهم، وجلس قليلاً ثم نهض وأقام الصلاة وبدأ يصلي وكأن أحداً لا يوجد حوله. ثم بدأ يصلي وحده. يوم.. يومان.. وهو على الحال نفسها. الناس كانت تضحك ثم اعتادت على الموضوع كل يوم، فلم يعودوا يضحكون. ثم حصل التغيير.

العامل الذي كان يصلي في القبو خرج وصلى معه.. ثم أصبحوا أربعة، وبعد أسبوع صلى معهم أستاذ، انتشر الموضوع والكلام عنه في كل أرجاء الكلية، استدعى العميد هذا الطالب وقال له: لا يجوز هذا الذي يحصل، أن تصلوا وسط الكلية، نحن سنبني لكم مسجداً عبارة عن غرفة نظيفة مرتبة يصلي فيها من يشاء وقت الصلاة.

وهكذا بني أول مسجد في كلية جامعية. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، فقد شعر باقي الطلاب في الكليات بالغيرة وقالوا: لماذا كلية الزراعة بها مسجد؟ فبني مسجد في كل كلية بالجامعة.

obeikandi.com

هذا الطالب تصرف بإيجابية في موقف واحد في حياته فكانت النتيجة أعظم من المتوقع.. ولا يزال هذا الشخص سواءٌ أكان حياً أم ميتاً ينال الحسنات عن كل مسجد يبنى في الجامعات ويذكر فيه اسم الله... هذا ما أضافه ذلك الشخص للحياة فماذا أضفنا نحن لها؟ سؤال لا بد لكل منا أن يفكر فيه.

ثانياً: الجهاد في سبيل الله فريضة ماضية إلى يوم القيامة: نعم، فالقتال أعلى صور الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام كما قال عليه الصلاة والسلام. لكنّ القتال كان ممنوعاً على المسلمين في مكّة، ثمّ أصبح جائزًا للدفاع عن النفس في المدينة، ثمّ أصبح واجباً للدفاع عن النفس وعن الدين. وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، استقرّ تشريع القتال على المنع أو الإباحة أو الوجوب بحسب الظروف التي تمرّ بالمسلمين، وتبقى الدعوة إلى الله هي المهمّة الأولى في جميع الظروف، ويكون القتال في سبيل الله مطلوباً إذا وُجدت أسبابه الشرعية وهي ردّ الاعتداء، ومنع الفتنة، وهي إكراه الناس على دين لا يريدونه، فالدعوة هي الهدف، والقتال لم يُشرع إلاّ كوسيلة مساعدة للدعوة تضمن الاستماع إليها، وقبولها أو رفضها بكلّ حرّية.

وإذا كان القتال يستلزم أخلاقًا خاصّة في التعامل مع الأعداء، كالغلظة بدل الرفق، واستباحة الدماء والأموال بدل المحافظة عليها، وجواز الخداع وغير ذلك، فإنّ هذه الأحكام تبقى محصورة في زمن قيام الحرب فعلاً وبين المتقاتلين فقط، يقول الله تعالى: ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴿٧٢﴾﴾ (سورة الأنفال: 72). فأبيح للمسلمين عدم

نصـرة إخـوانهم إذا كـانوا مـرتبطين بميـثـاق مع أعـدائهم الكافـرين، ولذلك قال الإمام النووي في الجزء السابع من شرحه لصحيح مسلم: اتفق العلماء على جواز خداع الكفّار في الحرب كيف أمكن الخداع إلاّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحلّ (ج: 7 ـ 230).

إنّ من أهمّ أسباب الاختلاف بين المسلمين اليوم في كيفية التعامل مع غير المسلمين، هو معرفة القاعدة التي يقوم عليها هذا التعامل: هل هي قاعدة الدعوة بما تقتضيه من أخلاق؟ أم قاعدة القتال بما يقتضيه من أحكام؟ ويجد كلّ فريق دليله في كتاب الله، أو في سنّة رسوله ﷺ، ولذلك كان لا بدّ من تحديد هذه القاعدة أولاً، حتّى يمكن أن يقوم عليها ما تقتضيه من أحكام.

إنّ العالم اليوم أصبح منفتحاً على بعضه في كلّ بقاع الأرض. والمسلمون موجودون في أوروبا وأمريكا وأستراليا وآسيا وأفريقيا، وهم يشكّلون أقلّيات كبيرة في أكثر البلاد غير الإسلامية، وعدد كبير منهم من أهل البلاد الأصليين، وإنّ المحافظة على حقوق الإنسان ومنها حرّية الاعتقاد أصبحت سائدة في أكثر دول العالم ـ إن لم نقل فيها جميعاً ـ بحيث لم يعد القتال لمنع الفتنة حسب التعبير القرآني وارداً. لكن القتال دفاعًا عن النفس ورداً للاعتداء لا يزال قائمًا بين حين وآخر، ومنه القتال الذي وقع في البوسنة وكوسوفا والشيشان وأفغانستان وفلسطين.

ومن هذا المنطلق فإنّنا نعتقد أنّ الدعوة هي قاعدة التعامل مع غير المسلمين من حيث المبدأ. ولعل كل الطلاب والموفدين للدراسة في بلاد الغرب يندرجون تحت هذه القاعدة. لذا كان لزاماً الالتزام بأخلاقها

وأحكامها. ولا يصحّ استعمال أحكام القتال في الظروف الحاضرة. بل حتّى حين يقع مثل هذا القتال دفاعاً عن النفس في أيّ بلد من بلاد العالم، فإنّه يبقى محصوراً في ذلك البلد، وبإمكان المسلمين ومن واجبهم أن يساعدوا إخوانهم بما يستطيعون ضمن ظروفهم ومواثيقهم. إنّ من أهمّ ساحات القتال المعاصر ما يجري في أرض فلسطين المحتلّة بين شعبها المظلوم المجاهد، وبين الاحتلال الصهيوني الاستيطاني الغادر. وعلى الرغم من أنّ قضية فلسطين لها مقام خاصّ في قلب كلّ مسلم، لوجود المسجد الأقصى فيها، ولتعرّضه لمؤامرات الهدم، فإنّ جميع القوى والتنظيمات الفلسطينية تعتقد بضرورة حصر المعركة داخل الأرض الفلسطينية ومع العدوّ الصهيوني فقط. هذه مسألة مهمّة يجدر الانتباه إليها.

فالولايات المتحدة الأمريكية بموقفها المنحاز بشكل كامل مع العدوّ الصهيوني، وبتبنّيها الكامل لجميع أعماله الإجرامية، وبالدعم غير المحدود مالياً وعسكرياً وسياسياً، جعلت نفسها في موقع العداء للشعوب العربية والإسلامية. هذا الموقف تجب مواجهته بالمستطاع. ولقد طرح علماء وقادة الحركات الإسلامية فكرة مقاطعة المنتجات الأمريكية، وهي مواجهة مؤثرة لو عمّت جميع البلاد العربية والإسلامية. ويطرح الكثيرون على الدول الإسلامية ضرورة اتخاذ مواقف أشدّ تجاه الولايات المتحدة. ولكن لم يطرح أحد فكرة نقل المعركة إلى الأرض الأمريكية، فإنّ ذلك غير مفيد في الصراعات المحلّية، ومضرّ ضرراً بالغاً بالوجود الإسلامي في جميع دول الغرب.

فالإسلام من حيث المبدأ ينهى عن قتل النفس، قال تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ (سورة المائدة: 32). وقال: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ (سورة الإسراء: 33). والنفس هنا تشمل المسلم وغير المسلم. وقد أذن الله تعالى بقتل النفس المسلمة حَدًا أو قصاصًا لأسباب محدّدة. كما أذن بقتل النفس غير المسلمة لظروف محدّدة أيضًا. ولكن لم يرد الإذن الشرعي بقتل أيّ إنسان بسبب عمل أو جريمة قام بها غيره، لأنّ القاعدة الشرعية المتفق عليها التي نصّ عليها القرآن ﴿**أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾**﴾ (سورة النجم: 38). أي لا يتحمل أيّ إنسان مسؤولية عمل غيره.

ويظنّ بعض المسلمين أنهّ يجوز قتل غير المسلم ولو دون سبب، ويبنون ذلك على أنّ الكافر حربيّ في رأي أكثر الفقهاء، وأنّ الحربي غير معصوم الدمّ، فيجوز بالتالي قتله كيفما كان. وهذه مسألة مهمّة للغاية، ويجب توضيحها بما يأتي:

- ليس كلّ كافر حربياً، بل هو يصير كذلك إذا أعلن هو أو دولته الحرب على المسلمين، أو إذا أعلن المسلمون الحرب عليهم. وإذا لم يقع ذلك فكلّ كافر يمكن أن يكون حربياً، وهذا ما يعنيه الفقهاء عن الكافر بأنّه حربي. وبالتالي فيجب على المسلمين أن يكونوا حذرين منه حتّى تنقطع حربيّته بعهد، فيلتزم المسلمون معه بأحكام العهد. قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾**﴾ (سورة الإسراء: 34).

- وحتّى الكافر الحربيّ، لا يُقتل لمجرّد كفره، بل يُقتل حين يحارب المسلمين وبسبب محاربته الفعلية، ولذلك يقول جمهور الفقهاء من المالكية والحنفية والحنابلة: إنّ (علّة القتال هي الحرابة ـ أي المحاربة ـ وليس مجرّد الكفر). هذا القول هو الصحيح، يؤيّده قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿١٩٠﴾﴾ (سورة البقرة: 190). وهو هنا ينهى عن مقاتلة غير المقاتلين، بل يعتبر مقاتلتهم اعتداء.. وهذا ممّا لا يقبل النسخ. فلقد منع الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة قتل مَن لا يقاتل من الكفّار: كالمرأة والصبيّ غير المقاتل والعسيف، وهو الأجير المستخدَم في أمور لا تتصل بالقتال، والشيخ الفاني. وقد قاس الفقهاء على هذه النصوص منع قتل (الرهبان في الصوامع، والتجّار، والمقعد والأعمى والمشلول والمعتوه والسائح ومقطوع اليد والرجل، والمريض مرضًا مزمناً). ولو كان القتل جائزًا لمجرّد الكفر، لكان هذا مناقضًا لعدم الإكراه في الدين، وهذه مسألة لا نعلم خلافًا حولها لورود النصوص القاطعة فيها كقوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (سورة البقرة: 256).

- أنّ الرسول ﷺ أسر الكثير من المشركين وأطلق سراحهم بفدية أو دونها، وقتل بعضهم لأسباب أخرى غير الكفر. ولو كان القتل واجباً لمجرّد الكفر، لما جاز تركهم. والكافر يمكن أن يدخل في عهد مع المسلمين، فيعصم دمه وماله، والعهد يمكن أن يكون من الأفراد ومن الدول.

- فعلى نطاق الأفراد، الحربيّ يحصل على الأمان من أيّ مسلم بالغٍ عاقلٍ، وليس شرطاً أن تعطي الأمان الدولة. بل بالغ المالكية والحنابلة فأجازوا إعطاء الأمان حتّى من الصبيّ المميّز وهو الذي بلغ سبع سنوات، وأيّدهم في ذلك محمد بن الحسن من الحنفية، ولو دخل الحربيّ دار الإسلام بغير أمان وقال: دخلت لسماع كلام الله تعالى، أو دخلت رسولاً ـ سواء معه كتاب أم لم يكن ـ أو قال: دخلت بأمان مسلم دون أن يأتي ببيّنة على ذلك، صُدِّق ولم يُتعرّض له لاحتمال ما يدّعيه، ولأنّ قصده ذلك يؤمّنه من غير احتياج إلى تأمين. هذا قول الشافعية والحنابلة، وعند المالكية: يُردّ إلى مأمنه إلاّ أن توجد قرينة كذب (انظر إلى عظمة هذا الموقف، فقد دخل الحربي دار الإسلام بغير أمان، ومع ذلك لا يُقتل بحجّة أنّه غير معصوم الدم بل يُردّ إلى مكانه الذي يأمن فيه). وعند الأحناف: يُطالَب بالبيّنة لإمكانها غالباً.

كما أنّ الحربي يمكن أن يصير ذمّياً بالتراضي، أو بالإقامة مدّة سنة في دار الإسلام، وهذا معناه في الأعراف المعاصرة أنّ أيّ أجنبي حربيّ يمكن أن يصبح مواطنًا في دار الإسلام بمجرّد الإقامة النظامية فيها مدّة سنة واحدة إذا رضي بالخضوع لقوانينها.

- وعلى نطاق الدول، يقع العهد بين المسلمين وغيرهم، فتصبح دارهم دار عهد، وعند ذلك (يمنع الإمام المسلمين والذمّيين من إيذائهم والتعرّض لهم، لأنّهم استفادوا بالأمان في أنفسهم

وأموالهم بالموادعة). ويُعتبَر اليوم ميثاق الأمم المتحدة عهدًا بين جميع الدول الموقّعة عليه. حين تقع الحرب الفعلية بين المسلمين وأعدائهم، يجب أن يلتزم المسلمون بأحكام الإسلام في الحرب. ومنها: عدم جواز قتل غير المقاتلين، وقد تضافرت على ذلك النصوص القاطعة، وروايات البخاري ومسلم تذكر نهي رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان بالتحديد. وفي رواية أبي داود وهي صحيحة أنّ رسول الله ﷺ أرسل لخالد (لا يقتلنّ امرأة ولا عسيفاً) والعسيف هو الأجير الذي يعمل في غير أمور القتال كالفلاّحين والعمّال في المصانع وعمّال النظافة في الطرقات والأطبّاء والممرّضين وغيرهم.. وفي رواية ثانية لأبي داود: (.. لا تقتلوا شيخًا فانياً)، أي: لم يبق فيه نفع للكفّار ولا مضرّة على المسلمين.

- وقد أباح الإسلام ـ استثناءً من هذا الأصل ـ قتل غير المقاتلين حين شنّ الغارات على العدوّ، أو حين رميه من بعيد، لأنّه لا يمكن هنا التفريق بين المقاتل وغير المقاتل، وطبيعة الحرب قد تقتضي شنّ مثل هذه الغارات. وقد أباح النبيّ ﷺ ـ كما ورد في الصحيحين ـ (تبييت المشركين) أي: مهاجمتهم ليلاً على حين غفلة، ولو أدّى ذلك إلى إصابة الذراري من النساء والأطفال، لكن من الواضح أنّ جميع هذه النصوص وردت عند قيام حرب فعلية معلنة، بحيث لا يقع بها غدر.

- أمّا التخريب في بلاد الأعداء وإشعال الحرائق، فقد اختلف فيه العلماء بين مجيز ومانع، وقد جمع شيخ المفسّرين الطبري بين القولين، بأنّ النهي محمول على القصد إلى ذلك، بخلاف وقوع ذلك أثناء القتال من غير قصد إليه، وقد ذكر الدكتور محمد خير هيكل في كتابه: «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» أنّ هذا هو قول أكثر أهل العلم.

- وقد لخّص هذه الأحكام الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في وصيّته لأول جيش إسلامي خرج من الجزيرة العربية لقتال الروم، وفيها: «لا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلاّ لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له» (المدوّنة 2/7 ـ وتاريخ الطبري).

في ضوء ما تقدّم نقول بوضوح: إنّ التفجيرات التي وقعت في نيويورك وواشنطن لا يمكن أن تكون مقبولة من وجهة النظر الشرعية، وبالتالي لا يمكن تسميتها عمليّات استشهادية ـ إذا صحّ أنّ الذين قاموا بها مسلمون، للأسباب الآتية:

- أنّ الظروف التي يعيشها المسلمون اليوم في أكثر بقاع الأرض هي ظروف الدعوة وليس القتال. وأنّ اللجوء إلى القتال في مثل هذه الظروف يضرّ ضرراً بالغاً بالدعوة. فلقد بذل المسلمون في أوروبا وأمريكا جهودًا كبيرة من أجل عرض الإسلام على

الشعوب الغربية بصورته الحقيقية الجذّابة، فجاءت هذه التفجيرات لتعلن الحرب على الشعوب وليس على الحكومات، وتحقّق ما يريده أعداء الإسلام من إيقاف مسار الدعوة، وهو أثقل في الميزان الشرعي من شهوة الانتقام ضدّ الإدارة الأمريكية الظالمة.

- أن جميع المتهمين دخلوا الولايات المتحدة بتأشيرة رسمية، وهي تعتبر من وجهة النظر الفقهية عقد استئمان «ولا يحلّ للمسلم خيانتهم في شيء، لأنّهم أعطوه الأمان مشروطًا بتركه خيانتهم، وإن لم يكن ذلك باللفظ، فهو معلوم في المعنى، فلا يحلّ له خيانتهم، لأنّه غدر، ولا يصلح الغدر في الإسلام» (الموسوعة الفقهية الكويتية، ج 7).

- أن الإقدام على خطف طائرات مدنية، يوجد عليها نساء وشيوخ وأطفال، ومسلمون وغير مسلمين، هو في الأصل حرام. لأنّه ترويع للناس، وهو لا يجوز كما هو معروف إلاّ أثناء القتال وضدّ المقاتلين فقط. والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾ (سورة التوبة: الآية 6). هذا في المشرك المقاتل، فكيف بغير المقاتلين؟ فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الخاطفين ضربوا بهذه الطائرات المخطوفة وركّابها المدنيين في برج التجارة العالمي في نيويورك، حيث يوجد آلاف من الموظّفين وآلاف من المراجعين كلّهم في الأصل غير مقاتلين، وفيهم نساء وشيوخ، وفيهم مسلمون وغير مسلمين، وقد ورد في مصنّف ابن

أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال: «كانوا لا يقتلون تجّار المشركين» (رقم 14076 ـ جـ 386/12)، إضافة إلى النصوص القاطعة التي تمنع قتل من لم يقاتل، أدركنا حجم المخالفة الشرعية التي وقع فيها هؤلاء، ناهيك عن أنهم كانوا قاصدين قتل المدنيين ! ولم يكن قتلهم عرضاً أثناء مقاتلة العسكريين.

فهذا إذاً هو الرأي الشرعي ورأي أغلب المسلمين من أهل السنة والجماعة، ورغم ذلك فإنه لا يمنع بأن يتم الخوض في أحداث 11 سبتمبر وتداعياتها وإبداء بعض الآراء حول هذا الحادث الذي أضر كثيراً بالمسلمين على مستوى العالم وداخل أمريكا على وجه الخصوص. وتداعياته على الطلاب العرب والمسلمين في أمريكا.

❀ ❀ ❀

مركز التجارة العالمي

نبذة تاريخية:

كان صرحاً فهوى..... عندما نعود إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر من العام 2001 م فإنّ أوّل ما سيتبادر في ذهننا هو ضحايا هذه الهجمات، إذ سنندبهم وسنتعاطف مع أهاليهم (مسلمين وغيرهم) فالأمر هنا إنساني بحت، كما سنقدر ما قام به عمال الإنقاذ في ذلك اليوم. وفي الوقت نفسه، سنتذكر كل التقنيات التي